مفهوم ومنطلقات حوار وصراع الحضارات

أ.د. السعيد بوسقطة أ.خولة بوبصلة
جامعة عنابة

الملخص :

قبل ما قارب العقدين طرح "روجيه غارودي" المتنقل بين اتجاهات عصر الأيديولوجيات مشروعه" حوار الحضـــارات" داعيا إلى تأسيس أرضية لتفاهم بين شعوب الأرض، وكان مشروعه يتسم بسمة أساسية هي نقد الهيمنة الغربية على عالم اليوم، واعتبر الغرب عرضا ألم بمسيرة البشرية وبشر بزواله .

أما مفكرو الغرب في النصف الثاني من القرن العشرين، فقد كانوا يعبرون عن اتجاهات الغرب البرجماتية ومن هذا القبيل نظرية" نهاية التاريخ والإنسان الأخير" التي أطلقها "فوكوياما" الياباني الأصل الأمريكي الجنسية قبيل أعوام .

وفي صيف "1993" نشر المفكر الأمريكي الشهير "صموئيل هنتغتون" مقالا في صحيفة "foreign affairs" تحت عنوان "صدام الحضارات" محاولا قراءة مستقبل العالم المعاصر وتأكيد تحول مسارات الصراع في القرن القادم إلى صراع بين تلك الحضارات وليس صراعا أيديولوجيا أو اقتصاديا.....

ومع تمايز الحضارات التي يحددها بسبع أو ثماني حضارات في أمور عدة، فإنّه يأخذ بالبعد الديني كأكثر ما يميزها ويجعلها تتباين عن بعضها البعض، ظلت هذه الدراسة التي وصفها هنتغتون بعنوان "الصدام بين الحضارات" محل بحث ومناقشة منذ سنوات عديدة في الغرب والشرق على حد سواء وعندما كادت تلك المقولة تختفي وتتلاشى، عادت هجمات 11سبتمبر لتحييها من جديد.

الكلمات المفتاحية: حوار، صراع، الحضارات، روجيه غارودي، صموئيل هنتغتون .

The concept premises dialogue and the clash of civilizations

Before nearly two decades "Roger Garaudy" Transferring from the trends of ideology, he posed his project of dialogue of civilizations, called for the establishment of the floor of understanding between the peoples of the earth, and his project was characterized by a basic feature which is the critique of Western hegemony over the world today, and considered the West casually covers the human march and he predicted his disappearance, While the Western intellectuals in the second half of the twentieth century, they were expressing the pragmatic directions of the west, and such the theory of the end of history and the last man launched by "Fukuyama" Japanese origin, and from American nationality before some years.

In the summer of 1993 the American ideologist Samuel Huntington published an article in the newspaper (Foreign affaire) under the title clash of civilizations, trying to read the future of the modern world, and confirm the transformation of the conflict paths in the next century to the conflict between the civilizations and not an ideological or economic conflict.

With the differentiation of civilizations determined by seven or eight civilizations in many things, he takes the religious dimension as the most what distinguishes it and makes them differ from each other, this study, which described by Huntington by the title of “the clash between civilizations” remained the subject of research and discussion for many years in the west and east since both when almost the argument disappear and fade, the attacks of 11 September revived it again.

توطئة:

لا يتجادل اثنان في كون الدعوة إلى حوار الحضارات تعتبر سمة من سمات النصف الثاني من القرن العشرين وكأنّما أدرك العالم بعد اكتوائه بلظى حروب عالمية مدمرة، أنّ البشرية لا تستطيع أن تتحمل حروبا أخرى بعد أن حصدت ويـــلات كثيرة أسهمت في تفاقم المشكلات الجوهرية الكبرى، التي ظل يعاني منها كل من الغالب والمغلوب، لذلك بادرت جهات

نسخة غير قابلة للطباعة

ومؤسسات كثيرة في العالم إلى تبني الدعوة إلى حوار الحضارات أملا في الالتقاء على مبادئ موحدة، وقواسم مشتركة بين أتباع مختلف الحضارات، حيث تكون كفيلة بفتح الطريق للتفاهم والتعاون والتعايش.

مفهوم حوار الحضارات:

لقد دعت محافل ومنظمات كثيرة إلى حوار الحضارات منذ الستينات من القرن المنصرم لأنّه البديل الموضوعي والمنطقي لتجنيب العالم ويلات الصراع، وكوارث الصدام الحضاري، كما أنّ الطرف الإسلامي لم يكن بعيد عن فكرة تنظيم مؤتمرات وملتقيات دولية لترسيخ آليات الحوار الحضاري من قبل مؤسسات، ومنظمات ثقافية إيمانا منها بأنّ (حوار الحضارات) يعتبر مطلبا إسلاميا ملحا يدعو إليه القرآن الكريم، وتبشر به السنة الشريفة، قال اللّه تعالى: << يأيها الناس إنّا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إنّ أكرمكم عند اللّه اتقاكم إنّ اللّه عليم خبير>>[1].

وهكذا انتشر مفهوم (حوار الحضارات) في وسائل الإعلام العربية ردا على مقولة (صدام الحضارات)، مبرزا بصفة خاصة ما عرفت به الحضارة العربية من تفتح على الحضارات الأخرى وما يزخر به تراثها من أخذ، وعطاء ففكرة حوار الحضارات قد ولدت من رحم التصدي لمقولة صدام الحضارات.

تعتبر فكرة الحوار بين الحضارات جوهر النضال الذي بدأه غارودي نظريا، وجسده فعليا سنة 1976 بتأسيس المعهد الدولي لحوار الحضارات في جنيف وأصدر كتابه الرائع (من أجل حوار بين الحضارات) 1977 أكد فيه حقيقة الغرب الذي يدعي العلو والتنامي على الثقافات الأخرى، حيث نقد حضارة الغرب من حيث السلوك في تاريخ العلاقة بالأمم والحضارات الأخرى.

يؤكد "غارودي" أنّ المسيحية كانت، بالنسبة للغرب، الحقيقة المطلقة فاستخدموها لاحتلال العالم، ثم وجدوا الحقيقة المطلقة في العلم فاستخدموا التقدم العلمي وسيلة لفرض سيادتهم على العالم، والآن يضعون الحقيقة المطلقة في إطار الحداثة، والتطور لمواصلة تبريراتهم السابقة بإقناع الأخر واحتوائه وتدجينه"[2].

فهو من خلال الكتاب أيضا كان لديه الكثير من البواعث لتعزيز الحوار بدلا من الصدام، لهذا دعا الغرب إلى إعادة النظر في الذات، والآخر الحضاري، بل دعاه إلى الاستفادة من الحضارات الأخرى بلورة مشروع الأمل لديه حيث قال: "وبهذا الحوار بين الحضارات وحده يمكن أن يولد مشروع كوني يتسق مع اختراع المستقبل....."[3].

لقد خرج على العالم أجمع بنظريته، ومشروعه للجمع بين الحضارات المختلفة على أساس أرضية مشتركة للتفاهم على مستوى شعوب الأرض، لكن مشروعه كان يتسم بسمة أساسية ألا وهي، النقد الشديد للهيمنة الغربية، والسيطرة الأمريكية حتى أنّه بشر في ثنايا نظريته بزوال الغرب عموما.

إنّ ولادة الحضارات عملية معقدة بلا أدنى شك "ولكن من الثابت أنّ كل حضارة تنتج من حيث تريد أو لا تريد حضارة أخرى أكثر منها شبابا وحيوية، تتغذى منها وهي جنين وتحتاج إلى رعايتها وهي طفل، ثم تنافسها وهي شابة، ثم تموت الأم وتستمر البنت في الحياة وقد أخذت بعض ملامح الأم وبعض شخصيتها المستقلة"[4].

فإذا كانت القرون السابقة، هي قرون الحضارة الإسلامية، فالقرن التاسع عشر كان قرن الحضارة الأوربية حيث سيطرت فيه أوروبا على العالم بعد أن أخذت الكثير من الحضارة الإسلامية، وقد لعبت الأندلس دور الوسيط في ذلك، ولم يطل القرن العشرون إلا وسيطرت الولايات المتحدة الأمريكية بحضارتها التي استمدتها من الحضارة الأوروبية، ولكنّها اِسْتَقَلَتْ عَنْهَا، الأَمْرُ الذِي لا نَزَالُ مُعَاصِرِينَ لَهُ[5].

نسخة غير قابلة للطباعة

ولذا نجد المفكر الفرنسي (روجيه غارودي) يقول في مدخل كتابه << من أجل الحوار بين الحضارات>>: "أنّ عصر النهضة، وهو ليس حركة ثقافية وحسب، بل ولادة مواكبة أنجبت الرأسمالية والاستعمار الذي هدم حضارات أسمى من حضارات الغرب باعتبار علاقات الإنسان فيها بالطبيعة، والمجتمع، وبالإله، بدل أن يكون ذروة النزعة الإنسانية، والتاريخ الحقيقي، أي التاريخ الذي يرغب عن أن يتركز حول الغرب، قد يكون تاريخ فرص أضاعتها الإنسانية بسبب التفوق الغربي لا يرجع إلى تفوق ثقافته، بل إلى استخدام تقنيات السلاح والبحر لأهداف عسكرية عدوانية"[6].

يتعين الحوار على معرفة أوجه الاختلاف بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية ومحاولة التفاهم بينهما ثم يتعين بعد ذلك معرفة أوجه الشبه والاستفادة من ذلك ونقد الذات من قبل الطرفين والفهم الدقيق لبعضهما هو الطريق الأسلم في حوار الحضارات.

إنّ التأثر بالآخر أمر لا مفر منه اليوم، شئنا أم أبينا ففي عصر الاتصالات الحديثة والمذهلة في سرعتها، يغزونا الآخر في عقر دارنا بغية مسح شخصيتنا، كي نكون تابعين له لا مبدعين مثله "المهم أن نعي أهمية أن نكون أنفسنا وضرورة الثقة بها، ولن تتحقق هذه الثقة إلا بالتمسك بكل مقوماتنا الشخصية التي صنعت لنا حضارة خاصة"[7].

ثم عن وحدة الجنس أو اللّون أو اللّغة، ليست ضرورة حتمية لا يتحقق التفاهم دونها، لذلك "لابد من أجل إقامة علاقات مبنية على المحبة والاحترام، من الحوار على قاعدة هذه الاختلافات التي خلقها اللّه وأرادها أن تكون".[8]

إنّ الحوار لا ينبغي أن يكون من طرف الإسلام دون الغرب إذ يتوجب على الغرب كذلك وهذا ما يسعى إليه بعض مفكريهم إلى محاولة الحوار والتفهم للطرف الآخر، يقول (صموئيل هنتغتون) Samuel Huntington في معرض حديثه عن صراع الحضارات "لن تكون هناك حضارة عالمية واحدة، بل عالم يفهم حضارات مختلفة ينبغي أن يتعلم كل منها طريقة التعايش مع غيرها ووجوب بذل جهد لتحديد العناصر المشتركة بين الحضارات الغربية وغيرها من الحضارات"[9].

ودعا الغرب أن يطور فهما أعمق للفروض الدينية، والفلسفية الكامنة وراء الحضارات الأخرى، والطريقة التي ترى بها شعوب هذه الحضارات مصالحها.

فالحوار الحضاري بين الطرفين هو الفعل الأقدر على توليد حضارة أقوى وأفضل أو على الأقل فك الصراعات الدموية.

فلابد أن تتفاعل الحضارات الإنسانية مع بعضها البعض، بما يعود على الإنسان والبشرية جمعاء بالخير والفائدة فالتفاعل عملية صراعية ولكنّها متجهة نحو البناء والاستجابة الحضارية للتحديات الراهنة.

والإسلام كدين وحضارة عندما يدعو إلى التفاعل بين الحضارات ينكر المركزية الحضارية التي تدير العالم حضارة واحدة مهيمنة ومتحكمة في الأنماط والتكتلات الحضارية الأخرى، فالإسلام يريد العالم منتدى حضارات متعدد الأطراف.

"إن هدف الحوار ليس إقناع الآخر بأن يكف عن أن يكون نفسه، إنّ الهدف على العكس من ذلك اكتشاف الآخر في عمقه لتمكينه من أن يسهم بفكره وبتجربته الخاصة، وبإيمانه في بلورة الحقيقة وتكاملها، ومن ثم العمل معه، وكان العمل تحقيقا لحب هو في ذاته أسمى تجليات العلاقة مع الآخر"[10].

بالإضافة إلى أنّ الحوار بين الحضارات يسهم بدرجة كبيرة في إزالة الحواجز المتراكمة من سوء الفهم المتبادل، ومن الأفكار المسبقة القائمة على أسس غير صحيحة والتي تختزنها الذاكرة الشعبية لثقافة شعب من الشعوب عن ثقافة وشعب أخر.

لذا لابد من تفعيل سياسة الحوار، وتيسيره حتى تعم الفائدة، "مما يجعل رسالة الحوار وتوسع دائرته رسالة النخب الفكرية والكفاءات الثقافية، والعلمية وذلك من خلال إقامة منتديات عالمية تتوزع على أكثر من منطقة وإقليم"[11].

نسخة غير قابلة للطباعة

هكذا يبدو الحوار معبرا عن حاجة اجتماعية، وإنسانية تترع إلى التفاهم، والتلاقح والتطور وتبادل الخبرات في عملية تثاقف لا تنقطع على مرّ الزمن بين الناس أفراد وجماعات، فتتواصل الحضارات على قاعدة المصير المشترك للإنسانية دون أن يعني ذلك انتفاء التناقضات الحضارية والتي تبدو شرطا جوهريا للحاجة المثيرة للحوار.

تبنى الكثير من المفكرين، والمثقفين مقولة (حوار الحضارات)، وهي الرؤية التي دعا إليها في وقت مبكر المفكر الفرنسي المسلم (روجيه جار ودي)، وأكدها السيد (محمد خاتمي) في خطابه الشهير الذي ألقاه سنة 1998 في الجمعية العامة للأمم المتحدة مما حدا بها لاختيار سنة 2001 عاما للحوار بين الحضارات.

أصبحت هذه المقولة المقابل الأبرز لمصطلح الصدام، وبين هاتين المقولتين هناك نظرية ثالثة تعرف ب (تعارف الحضارات) وهي أطروحة أطلقها المفكر الإسلامي (زكي الميلاد)، في رؤية مغايرة لنظريتين السابقتين.

وقد بدأ التعريف بهذه النظرية سنة 1997 يقول زكي الميلاد شارحا نظرية التعارف:

"هي نظرية أراد بها غارودي أن تكون خطابا نقديا وعلاجيا لازمة الغرب الحضارية – كما يصفها- ولأنماط علاقاته بالعالم والحضارات غير الأوروبية، كما أراد منها أيضا أن تكون خطابا موجها إلى الغرب بصورة أساسية لذلك فهي تنتمي وتصنف على النظريات الغربية التي تنطلق من نقد التجربة الغربية والفكر الغربي، ومن حيث نسقها المعرفي فهي تنتمي إلى المجال الثقافي وتحدد به لأنّها تركز على الأبعاد الثقافية والفكرية والأخلاقية"[12].

وحتى يتحقق التحاور بين الطرفين ينبغي لشرقي نبذ العزلة، والتقوقع على ذات، وبالتالي الانفتاح على الآخر، ولا يكتمل هذا التحاور ما لم يتخل الأخر المتقدم على نرجسيته وعقدته في التفوق، وهذا ما ذهب إليه (روجيه غار ودي) بقوله: "إن ليس من الممكن إقامة حوار حقيقي بين الحضارات من شأنه أن يتيح إخصابا متبادلا بين الثقافات إذا لم نبدأ بتحليل الآليات التاريخية التي منعت أو زيفت، هذا الحوار إلى اليوم، وأفقرت معايير المقارنة ولاسيما شروط عدم التوازن الاقتصادي المطرد بين الغرب وبين العالم الثالث"[13].

فهل دخلنا فعلا مرحلة صراع الحضارات الذي أطلقه المفكر الأمريكي (صموئيل هنتغتون)، أم أنّ أصوات العقلاء الذين ينادونا بحوار الحضارات ستكون أقوى وأعلى؟.

مفهوم صدام الحضارات:

ما إن وضعت الحرب الباردة أوزارها، حتى خرج علينا منظرو القوى المنتصرة في تلك الحرب بأطروحة صدام الحضارات التي تقول بحتمية الصدام بين الحضارات، وبأنّ الصراعات القادمة ستكون بين الحضارات، والثقافات والأديان بعد انتهاء الايدولوجيا والتدافع بين المعسكرين، وانقسم المفكرون، والباحثون في التاريخ، والشؤون الدولية حول تلك الأطروحة بين مؤيد، ومعارض لها حيث رأى بعضهم صحة تلك الأطروحة، بينما رأى بعضهم الآخر أن طبيعة العلاقة بين الحضارات غير محكومة بالصراع أو الصدام.

منذ أن اهارت الشيوعية، والحديث لا ينقطع في الغرب عن أنّ الإسلام هو إمبراطورية الشر الجديدة، التي يمكن القضاء عليها (فريتشارد نيكسون) أكد صراحة في كتابه (الفرصة السانحة) أو (انتهزوا الفرصة) أنّ العالم الإسلامي هو العدو المستقبلي للغرب بعد انهيار الإتحاد السوفيتي، ويؤكد أنّ صورة الإسلام عند الغرب والأمريكيين خاصة صورة بشعة حيث يقول: "إنّ معظم الأمريكيين ينظرون نظرة موحدة للمسلمين على أنّهم غير متحضرين وسخين برابرة، وغير عقلانيين، لا يسترعون انتباها إلا أنّ الحظ حالف بعض قادتهم وأصبحوا حكاما على مناطق تحتوي على ثلثي الاحتياطي العالمي المعروف من النفط"[14].

نسخة غير قابلة للطباعة

(فنيكسون) يزعم أنّ أمريكيا تحمل للعالم رسالة تحريرية ودعوة للرخاء حيث ينهى الفصل الأول من كتابة قائلا: "إنّ أنظار العالم تتجه إلى أمريكا الآن لكي تخرجه من مشاكل ما بعد الحرب الباردة، وأنّه لأول مرّة في التاريخ تبدو الفرصة سانحة لكي نجعل القرن القادم عامرا بالحرية والسلام والتقدم، ولا توجد اليوم أي دولة خلاف أمريكا تستطيع تحقيق ذلك، وقد حانت الآن الفرصة الصادقة لتحقيق ذلك، ويجب علينا أن ننتهز الفرصة"[15].

ومع انهيار الإتحاد السوفيتي، وإنفراد الولايات المتحدة بقيادة العالم بدأت نظريات أخرى بالصعود إلى السطح، والظهور لتفسير كيفية تعامل القطب الأحادي مع العالم في ضوء الواقع الجديد، ومن هذه النظريات ما خرج به الأمريكي الجنسية الياباني الأصل (فوكوياما) بما يسمى ويعرف بنظرية (نهاية التاريخ)، التي مفادها تصوير انتصار الرأسمالية على الأرض أنّها نهاية التاريخ وأنّ الإنسان الأمريكي هو من وصل إلى أقصى مستوى حضاري ممكن وبالتالي فهي نظرية نهاية الإنسان والتاريخ.

حيث ذهب في ذلك المقال إلى أنّ إجماعا ملحوظا قد ظهر في السنوات القليلة الماضية في جميع أنحاء العالم حول شرعية الديمقراطية الليبرالية كنظام للحكم بعد أن لحقت الهزيمة بالإيديولوجيات المنافسة مثل الملكية الوراثية، والفاشية، والشيوعية في الفترة الأخيرة.

توقف التاريخ عند انتصار الأمريكي الحالي، ولذلك كان ما يسمى بنظرية نهاية التاريخ، كما أضاف إلى قوله: "إنّ الديمقراطية الليبرالية قد تشكل نقطة النهاية في التطور الإيديولوجي للإنسانية، والصورة النهائية لنظام الحكم البشري".[16]

إنّ القول بحتمية صراع الحضارات أو صدامها، يُجَافي سنة التاريخ ويتعارض مع طبيعة الحضارة، فالحضارة لا طابع عرقي لها، وهي لا ترتبط بجنس من الأجناس، ولا تنتمي إلى شعب من الشعوب، على الرغم من أنّ الحضارة قد تنسب إلى أمة، من الأمم، أو إلى منطقة جغرافية من مناطق العالم على سبيل التعريف ليس إلاّ، بخلاف الثقافة التي هي رمزُ للهوية، وعنوانُ على الذاتية، وتعبيرُ عن الخصوصيات التي تتميز بها أمة من الأمم، أو يتفرّدُ بها شعبُ من الشعوب والحضارة هي وعاءُ لثقافات متنوعة تعدّدت أصولها ومشاربها، وقد برزت نظرية صدام الحضارات (THE CLASH OF CIVILIZATIIONS)(لصموئيل هنتغتون)(Samuel Huntington) من خلال مقال كتبه عام 1993 حمل نفس العنوان بمجلة(FOREIGEN AFFAIRS) الشهيرة، الذي وسعه في كتاب عام 1996 بالولايات المتحدة الأمريكية، وترجم إلى الفرنسية سنة 1997 وهو رد على كتاب أحد تلامذته (فرانسيس فوكوياما)، الذي كتب سنوات قبل ذلك الكتاب سماه (نهاية التاريخ والإنسان الأخير).

ويجئ صموئيل هنتغتون(Samuel Huntington) أستاذ العلوم السياسية بجامعة هارفارد، ومدير معهد الدراسات الإستراتيجية فيها، وكان قبل مدة من الزمن – في عهد إدارة القس الأمريكي (جيمي كارتز) مسؤولا عن التخطيط في مجلس الأمن القومي –يأتي ليضع نظرية (صدام الحضارات) ويقول: "إنّ القضاء على الشيوعية، ليس نهاية التاريخ، وإنّ الإسلام هو العدو رقم واحد الذي يمثل الخطر الحقيقي على الحضارة الغربية"[17].

كان (صدام الحضارات) لصموئيل هنتغتون(Samuel Huntington)، صدى قوي حيث فتحت منذ نشرها مجالات ثقافية وسياسية وإستراتيجية حادة في أنحاء كثيرة من العالم وأثارت ردودا متباينة، راوحت بين التأييد والتحفظ والرفض وذلك في أجواء شبيهة إلى حد بعيد بتلك التي رافقت نشر مقالة "نهاية التاريخ" لفرانسيس فوكوياما صيف 1989.

إنّ الصراع بين الحضارات هو الذي سيحكم السياسة الدولية، كما أنّ هنتغتون قد ركز على الصدام الحضاري بين "الإسلام" و "الغرب"، وقد قام هنتغتون بتوظيف كل ما لديه من خبرة معرفية وعلمية لإخراج أطروحته من حيز الفرضية

نسخة غير قابلة للطباعة

إلى مستوى الحقيقة العلمية المبرهنة تاريخيا وواقعيا من خلال استدلاله بمجموعة من الوقائع التاريخية ومن خلال استقرائه بمجموعة من الصراعات الدولية الراهنة.

إنّ أطروحة هنتغتون تهتم بشكل محوري بالعالم الإسلامي كمجال حضاري إستراتيجي له موقع مركزي في العلاقات الدولية المستقبلية، فإنّه من الضروري تعميم الوعي بمضمونها، وأهدافها وبخاصة أنّها حاولت تسويق صورة سلبية عن الإسلام تساير تلك الموجة الفكرية التي أصبحت تسعى جاهدة لتماهي بين الإسلام، والعنف والإرهاب.

وعن اختياره للإسلام كحضارة تستدعي من الغرب مواجهتها "يستغل هنتغتون الأحداث المعاصرة الخاصة بوجود نقاط ساخنة متفجرة يكون أحد أطرافها مسلمون للتدليل على فكرته بأنّ الإسلام هو الخطر الأول للغرب"[18].

حاول هنتغتون قراءة مستقبل العالم المعاصر وقرر أنّ الصراع من خلال القرن القادم سيكون صراعا بين الحضارات وليس صراعا اقتصاديا، أو إيديولوجيا وقد حدد في نظريته تلك سبع حضارات أساسية يتوقع أن يلتهب بينهم الصراع ولابد في هذا الصراع من زوال البعض الأخر لهيمنة الأقوى.

ونحن لا نرى في أطروحة هنتغتون حول صراع الحضارات سوى فكرة تعبوية ذات رائحة عنصرية لا تستند إلى أي حقائق عملية أو مبررات أخلاقية، هدفها فقط تبرير الصدامات العنيفة التي يشهدها العالم نتيجة لرفض الكثيرين لمنطق الهيمنة والابتلاع وليس لمنطق العولمة، ويمكن تلخيص الفكرة المحورية في هذا المقال في ما يلي:

إنّ الإستراتيجية العالمية ستحدد مستقبلا بناءا على الحدود الثقافية، إذ أنّ الصراع سوف لا يندلع لأسباب اقتصادية، أو سياسية وإنّما سينفجر ذودا عن قيم ثقافية مختلفة عن قيم الآخر، وصنف الحضارة العربية الإسلامية في طليعة الحضارات التي تمثل قيمها قيم الآخر الخطر الذي تجب مواجهته ليس بالحوار، وإنّما بالصدام.

بدأ (صموئيل هنتغتون)(Samuel Huntington) في تعريف الحضارة فيقول: "الحضارات هي القبائل الإنسانية الكبرى، وصدام الحضارات صراع قبائلي على نطاق عالمي، والفروق الثقافية التي تحتل الأساس والمركز في التصنيف والتمييز بين البشر اليوم"[19].

فما الذي نعنيه عندما نتحدث عن حضارة ما؟ "إن الحضارة هي كيان ثقافي، فالقرى والأقاليم والمجموعات الأثنية والقوميات الدينية لها جميعا ثقافيات متميزة وهكذا فإنّ الحضارات هي أعلى تجمع ثقافي لناس وأوسع مستوى للهوية الثقافية للمجتمع، ولا يسبقها إلا ما يميز البشر عن الأنواع الأخرى"[20].

وتتحدد الهوية الثقافية عنده بالتضاد مع الآخرين حيث يقول: "إنّ الثقافة والهويات الثقافية والتي هي على المستوى العام هويات حضارية، هي التي تشكل أنماط التماسك والتفسخ والصراع في عالم ما بعد الحرب الباردة"[21].

تنطلق الدعاية الغربية في حربها ضد الإسلام من منطلق صدام الحضارات أو صراع الثقافات ويقوم الافتراض الأساسي لخطاب (صدام الحضارات) على أنّ الثقافة أو الهوية الثقافية الحضارية هي التي تشكل نماذج التماسك، والتفكك، والصراع في عالم ما بعد الحرب الباردة، وإنّ أكثر الصراعات أهمية وخطورة ستكون بين شعوب تنتمي إلى هويات ثقافية متباينة، وإنّ عالم ما بعد الحرب الباردة حسب هذا الخطاب يتكون من سبع أو ثمان حضارات وهي:

1- الحضارة الغربية وتضم النموذجين الأوروبي والأمريكي.
2- الحضارة الكونفوشيوسية أو الصينية.
3- الحضارة اليابانية.
4- الحضارة الهندوسية أو الهندوكية.

نسخة غير قابلة للطباعة

5- الحضارة الأرثوذكسية.
6- حضارة أمريكا اللاتينية.
7- الحضارة الإفريقية.
8- الحضارة الإسلامية .[22]

ويفترض خطاب صدام الحضارات أنَّ الحضارتين الإسلامية والكونفوشيوسية هما الحضارتان اللّتان لا يمكنهما أن يندمجا في الحضارة الغربية، وأن الصراع بينهما وبين الحضارة الغربية حتمي.

ولكن يعتبر هذا الخطاب أنَّ الإسلام هو الحضارة الوحيدة التي وضعت استمرار الغرب في شك، ولقد فعلت مرتين على الأقل:

- الاستيلاء على القسطنطينية في عام 1453 في المرة الأولى.
- ومحاصرة فيينا في عام 1592 في المرة الثانية .[23]

منطلقات صدام الحضارات:

تتحدد هذه المنطلقات في أربعة هي:

- أولا:الديانة هي المعيار لتمييز بين الحضارات، لأنَّ الدين حسب (هنتغتون) هو الخاصية الأساسية للتعريف بالحضارة، ودين هو أهم عامل بين العوامل الموضوعية التي تعرف الحضارات.
- ثانيا:حتمية صراع الحضارات يقول: إنّ الصراع بين القوى العظمى قد حل محل<<صدام الحضارات>> ويستدل: الدول القومية تظل الوحدات الرئيسية القائمة في الشؤون الدولية، وسلوكها يتشكل كما في الماضي بسعيها نحو القوة والثروة ولكن أيضا يتشكل بالاختيارات والاختلافات الثقافية، يعتقد هنتغتون أنَّ هذا العامل سيؤدي إلى الصراع بين القوة التي ستقوى ويكبر حجمها وبين المجتمعات غير الغربية التي تؤكد بشيء متزايد قيمها الثقافية وترفض تلك المفروضة عليها من الغرب.
- ثالثا:الإسلام هو العدو الأول، الصراع المقبل سيكون بين الحضارتين الغربية من جهة والحضارة الإسلامية والكونفوشيوسية من الجهة الأخرى من العداء أبرزه (هنتغتون) في قوله: أربعة عشر قرنا أثبتت أنّ العلاقة بين الإسلام والمسيحية كانت غالبا عاصفة وكل واحدة كان نقيض للآخر، ولكي يقنعنا بأطروحة العدو الأول سرد مجموعة من الأماكن التي تعاني من صراعات بين المسلمين وغيرهم: البوسنة، الشيشان، أرمينا أربانيا..... وغيرها من الدول التي أثبتت أنَّ المسلمين هم المسئولون عن ما يقع فيها.
- رابعا:الحضارة تشكل الاقتصاد يقول (هنتغتون) الحضارة تشكل الاقتصاد يقول:"الحضارة كل شيء في حياتنا التي تحدد المواقف السياسية المختلفة وهي التي تحدد سياستنا وحتى نظامنا السياسي.

لكن مقولة "صدام الحضارات" لا تقف عند حدود دولة إسلامية، بعينها وهذا ما أكده هنتغتون بقوله: "إنّ للإسلام حدود دموية" وبالتالي، ليس من الحكمة في شيء اختصار هذه المقولة بموقف سياسي قابل لتبدل في أي لحظة.

ويرى باحث عربي آخر أنَّ هذه المقولة هي"رد الفكر الغربي الآن على أصوليات دينية يدعوها هنتغتون بكثير من التسرع والخفّة "حضارات"[24].

نسخة غير قابلة للطباعة

وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ هنتينغتون –عندما يتحدث عن الصراع بين الحضارات الدينية- يتجاهل عن قصد وإصرار مبيتين الصراع بين اليهود والغرب أو بين اليهودية وعدوها الأول المسيحية، وأنكي من هذا أنّه لم يستخدم الدين كمعيار للتصنيف إلا عندما يتحدث عن الدين الإسلامي أو الحضارة الإسلامية[25].

وفي تصنيفه الحضارات عبر معايير مخالفة للمنهجية العلمية والتاريخية تمامًا فإنَّه يصنف الحضارات استنادًا لمناطق جغرافية أو بيئية أو عرقية أو دينية وهذا لا يتفق مع تتطلب تحديد المعايير والمفاهيم حتى يكون التصنيف منطقياً متسقاً أي تصنيف الحضارات –على سبيل المثال- على أساس ديني كمعيار واحد.

هذا ما افتقر إليه هنتغتون في هذا المجال، ومثال ذلك حينما يتم استخدام الدين كمعيار واحد وعليه يجب أن يكون تصنيف الحضارات على الشكل التالي: الحضارة المسيحية والحضارة الإسلامية والحضارة البوذية والحضارة اليهودية وهكذا.

وكان قد صنفها بصورة جغرافية بالكونفوشيوسية وهذه تشير إلى الحضارة الصينية واللاتينية الأمريكية لماذا؟ إنَّ الثقافة أو الهوية الثقافية والتي في أوسع معانيها الهوية الحضارية هي التي تشكل نماذج التماسك والتفكيك والصراع في عالم ما بعد الحرب الباردة[26].

إنّ فرضية هنتغتون الصدامية تخفي داخلها فقراً فلسفيا واضحاً يبرز أولاً في رفضه فصل الثقافة عن الحضارة واعتباره أنَّ الثقافة هي الفكرة العامة في كل تعريف للحضارة، ما انعكس بدوره على مفهومه عن الحضارة وربطه بالدين، وهذا خلل واضح إذ أنَّ استخدام مفهوم الحضارة، وبالتالي الدين بوصفه المؤشر الأساسي للتمييز بين أطراف الصراعات الرئيسية في عالمنا الحالي لا يساعد كثيراً في فهمنا الصراعات[27].

لكن أحسن رد على الأطروحة كان للمفكر الفلسطيني (ادوارد سعيد) الذي أجاب بمقال سماه "صراع الجهل" ونشرته اليومية الباريسية لوموند والذي فند فيه أطروحة صمويل هينيغتون "صراع الحضارات" وبين فيه كيف أنَّ مختلف الشعوب والحضارات هي مرتبطة ببعضها البعض وكل واحدة تابعة للأخرى لتحقيق العديد من حاجياتها، حسب الراحل ادوارد سعيد هذا بالإضافة أنَّ نظرية صدام الحضارات تعكس بصفة عامة نظرية المركزية الأوربية الكلاسيكية التي تعتبر الغرب وحضارته مركز العالم وبقية حضارات العالم هي هامش ليتطور عليه السير على طريق المركز بل يطالب الغرب بمراقبة الحضارات التي تشكل خطرا عليه من أجل احتوائها والسيطرة عليها لأنَّ هينيغتون في كتابه صور الغرب على أنَّه مُسَيَجْ ومحاصر من طرف حضارات تُكِنُّ لَهُ العداء وتريد القضاء عليه، وجاءت تفجيرات 11 من سبتمبر2001 لتجعله يتشبث بأطروحته خاصة أنَّه في كتابه، وفي الأخير يتصور "الإسلاميين" يحصلون على السلاح النووي.

لا شك أنَّ مقولة هنتغتون لم تكن جديدة من حيث المضمون لأنَّها تستعير مقولة (ارنولد توينبي) عن "التحدي والاستجابة" لتطلقها من جديد بأسلوب أيديولوجي فج ينبع من وهم الانتصار في الحرب الباردة[28].

إنّ مقارنة ما أحدثته مقولة "صدام الحضارات" في العالم الإسلامي، خاصة العربي من جهة وفي جنوب شرق آسيا من جهة أخرى تؤكد أنَّ اليابانيين والصينيين والكوريين قد عرفوا كيف يَرُدُونَ على الأيديولوجية بالعلم..... وذلك على قاعدة اللَّحاق بالغرب أولا ولتجاوز ثانيا، في حين أنَّ تلك المقولة أحدثت ذعرا في العالم العربي والإسلامي فانهالت عليها الردود العاطفية والأيديولوجية التي تفند بطلانها، وتظهر زيفها، وهي زائفة أصلا لأنّها غير علمية.[29]

الحديث عن صراع لم يقتصر على الدائرة الفكرية في الغرب، و لم يبق – في أحسن الأحوال- في أدراج الإستراتيجيين وصناع القرار الغربيين كخيار مطروح.

نسخة غير قابلة للطباعة

وظهر أنّه ليس لعبة يتلهى بها الرأي العام الغربي في أطر مضبوطة تؤدي وظائف بعينها وكفى لقد كان الحادي عشر من سبتمبر الحدث الذي مزق الستار الشفاف الذي كانت تتخفى خلفه كتل الحقد العنصرية لتنجرف كالسيل حمماً وبراكين في فلسطين وفي الولايات المتحدة الأمريكية نفسها، وليعبر عنصريو الغرب في فرنسا وإيطاليا وإنكلترا وبلجيكا وهولندا عن حقدهم الدفين بكل وضوح وبدون وجل أو شعور بتأنيب الضمير، فالآخر الذي هو الإسلام، هو عدو لابد من محاربته دون رحمة.

وبعد أن أخذت تجليات مقولة صراع الحضارات تتمظهر فاقعة وعلى صعد مختلفة تجاوزت من خلالها المقدمات لتبدأ فهشاً في المتن، والمتن ليس إلاّ حضارتنا، حاضرنا ومستقبلنا فهل يكفي أن ندعو لحوار الحضارات في وجه سياسات تعرف تماماً ماذا تريد، أم أنّ الأمر يتطلب تطوير إستراتيجيات دفاعية قد تكون أكثر فاعلية؟

إنّ نظرية "صدام الحضارات" تفترض أنّ الحضارات تتصادم بالضرورة، الأمر الذي يتعارض مع توجهها نحو حضارة عالمية واحدة، فالنظرية تنطوي على أوجه تناقض وعدم اتساق متعددة منها:

1- إنّها تقوم على إحلال فكرة "الحضارة" محل فكرة "الدولة" كمرجعية أساسية، وهذا معناه إحلال مرجع هلامي، غير محدد المعالم، لا يمكن قياسه بدقة.

2- إنّها تعني إضفاء صفيّ الثبات والدوام على ظواهر هي أقرب إلى الظواهر الانتقالية، ذلك أنّه لو كانت فكرة صدام الحضارات هي الأصل، كان ينبغي لها أن تسود في كل العصور.

3- هناك تناقض في افتراض رفض التفاعل بين الحضارات في عصر يوصف بعصر "العولمة"، هو في الأساس عصر التفاعلات على نطاق الكوكب كله.

4- تقوم على إهمال الاقتصاد بصفته "المحرك الرئيسي للتاريخ".

5- تقوم على قدر لا يستهان به من اللاعقلانية، واللاشفافية، ذلك أنّ الحضارات تقوم على عناصر كلية المفترض فيها بأنّها منفصلة، ولو بصفة نسبية، بعضها عن البعض الأخر.

6- إنّها نظرية رجعية، تفترض العودة بنا إلى حتمية المواجهة العدائية، إلى الهمجية، إلى زوال القوانين التاريخية إلى الفوضى أنّها نظرية تقوم على التمادي في اتجاه عكسي لاتجاه "الجبرية التاريخية"[30].

كذلك من الهفوات التي تحويها نجد:

1- تغلب النزعة السياسية في عمله في صدام الحضارات، على النزعة العلمية، ومن ثم ضعف تقيده بالشروط العلمية، والموضوعية في دراسة.

2- اضطراب تعريفه للحضارة، وخلط بين الحضارة، والثقافة، والدين بل، والطوائف الدينية حيث يكاد يكون تقسيمه للحضارات على أساس ديني، وطائفي مغلف بأقنعة ثقافية وحضارية وكذلك عدم تحديده معياراً دقيقاً يمكن بموجبه تميز البلدان التي تنتمي إلى مجموعة حضارية إلى البلدان التي تنتمي إلى مجموعة حضارية أخرى وهو خلق متعمد في تقديره استهدف حشد البلدان ذات التوجه الامبريالي ضد المرشحة للنهوض أو حتى تلك الرافضة للخضوع للحضارة.

3- عدم دقة المعيار الذي على ضوئه قسم المجموعات الحضارية ما عدا أمريكا اللاتينية من الحضارة الغربية لا يستقيم مع المنطق إذا ما استخدمنا المعيار الديني، أو الطائفي، واستبعاد البلقان واليونان لا يستقيم إذا ما استخدمنا المعيار الجغرافي[31].

نسخة غير قابلة للطباعة

4- ضعف الشواهد التاريخية الدالة على صدام الحضارات أو صدام الأديان حيث لم يمنع انتماء تركيا إلى الإسلام من غزو بقية بلاد المسلمين و لم يمنع العراق من قتال إيران ثم إنّ الحروب الأوربية الأوروبية وضمن ما يصنفه هنغتون على أنّه الغرب أكثر شراسة من حروب الأوربيين مع غيرهم.

5- لم يتمكن هنتنجتون من التميز بين المراحل المختلفة التي تمر بها الحضارات حيث تمر الحضارات بأطوار زاهرة سابقة على الاحتكار تضيق فيها الهوة بين القيم والممارسة وتكون فيها الحضارة في منتهى التسامح مع الحضارات الأخرى[32].

6- التركيز على خطورة الحضارة الإسلامية على الغرب لا يستقيم مع العلم ولا مع واقع المسلمين الذين ينتمون إلى حضارة بائدة ومندثرة وليست فاعله في العصر الحاضر الأمر الذي يؤكد نية الباحث المسبقة للبحث عن عدو يتمتع بمواصفات عديدة تؤله ليكون بذلك في نظر المواطن الغربي غير الواعي حتى لو كان ذلك العدو وهمياً ومختلقاً.

7- الأرقام والبيانات والإحصائيات التي أوردها الكاتب عن تقهقر الغرب لا تعبر في الواقع عن تقهقر الغرب بقدر ما تعبر عن نهوض وتقدم غيرهم من الأمم التي لم تكن سوى مستعمراتهم السابقة[33].

الخاتمة :

طبعا مات الباحث الأمريكي صاحب نظرية صدام الحضارات "صموئيل هنتنغتون" في نهاية شهر ديسمبر 2009، دون اهتمام العالم بغيابه رغم أنّ نظريته شغلت النقاش الفكري بالعالم خلال العقدين الأخيرين، وفي فترة وجيزة بعد موته غادر جورج بوش البيت الأبيض، وترك أمريكا غارقة في أزمة اقتصادية خطيرة لم يشهدها العالم منذ 1929 من القرن الماضي، كما ترك أمريكا غارقة في العديد من الحروب بالعراق، وأفغانستان، وترك أمريكا كبلد مكروه في العالم العربي، والإسلامي، كما أنّ الإسرائيليين استغلوا هذه الإدارة، وتساهلها لإطلاق رصاصة الرحمة على مسار السلام، وتقتيل الفلسطينيين مما أبعد إمكانية السلام في الظروف الحالية مع الفلسطينيين والعرب.

لقد ترك هينيغتون العالم في وضعية سوداء هي أقرب لصراع الحضارات وسيادة الكراهية وللاستقرار والتهديد بالعنف والإرهاب بكل أرجاء العالم وخاصة بالشرق الأوسط بشكل لم يشهده العالم حتى أثناء الحرب الباردة وصموئيل هينيغتون قال بنفسه "الأحداث التي يعرفها العالم اليوم تقوي أطروحتي حول صراع الحضارات وأفضل أنّ يحدث العكس".

إنّ التساؤل الذي يقفز إلى الذهن هنا: لماذا لا تأخذ الحضارة الغربية من الإسلام العدالة والمساواة؟، ولماذا لا نأخذ منهم التكنولوجيا والجدية في العمل؟ مما يستوجب تضافر قوى التآخي ضد أمثال صموئيل هنتغتون.

قائمة المصادر والمراجع:

[1]- سورة الحجرات: الأية 13.

[2]- أ. محمد السماك: مقدمة إلى الحوار الإسلامي - المسيحي، دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 1998، ص 91.

[3]- روجيه غارودي: في سبيل حوار الحضارات، ترجمة، عادل العوا، منشورات عويدات، بيروت، ط1، 1978، ص10.

[4]- هادي المدرسي: لئلا يكون صدام الحضارات، الطريقة الثالث بين الإسلام والغرب، دار الجديد، ط1، 1996، ص60.

[5]- المرجع نفسه: ص 62.

[6]- روجيه غارودي: في سبيل حوار الحضارات، ص8.

نسخة غير قابلة للطباعة

[7]- د. ماجدة حمود: مقاربات تطبيقية في الأدب المقارن، منشورات اتحاد الكتاب العرب، 2000، ص5.

[8]- أ. محمد السماك: مقدمة إلى الحوار الإسلامي، ص8.

[9]- د. محمد السماك: مقدمة إلى الحوار الإسلامي –المسيحي، ص92.

[10]- المرجع السابق: ص92.

[11]- د. محمد عبد القادر حاتم: العولمة مالها، وما عليها، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 2005، ص565.

[12]- أ. حمدي شفيق: الإسلام والآخر، الحوار هو الحل، جريدة النور الإسلامية المصرية، ص34، د.ط.

[13]- روجيه غارودي: في سبيل حوار الضارات، ص40.

[14]- د. محمد السماك: موقع الإسلام وصراع الحضارات، دار النفائس، ص309.، ص92.

[15]- د. محمد مورو: الإسلام وأمريكيا حوار أم مواجهة؟، الدبس للنشر، ص16.

[16]- فرانسيس فوكوياما : نهاية التاريخ، ترجمة حسين أحمد أمين، ط1، 1993، ص8.

[17]- أ. سعدي محمد : مستقبل العلاقات الدولية، من صراع الحضارات إلى أنسنة الحضارة وثقافة الإسلام، ط1، 2006، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت لبنان، ص4.

[18]- د. محمد عبد القادر حاتم: العولمة ما لها.... وما عليها، ص476.

[19]- صموئيل هنتغتون: صدام الحضارات وإعادة بناء النظام العالمي، ترجمة مالك أبو شهيوة ومحمد خلف، الدار الجماهرية للنشر1995، ص11.

[20]- المرجع نفسه: ص103.

[21]- المرجع نفسه، ص37.

[22]- المرجع السابق: ص14.

[23]- المرجع نفسه: ص38، 40.

[24]- مجموعة من الكتاب الإسلام والغرب، صراع في زمن العولمة، مجلة العربي، ط1، 2002، ص141.

[25]- أ. نزيه الشوفي: الثقافة الهدامة والإعلام الأسود، إتحاد الكتّاب العرب، ص120.

- http:// www.awu-dam.or.

[26]- المرجع نفسه: ص121.

- http:// www.awu-dam.org.

[27]- المرجع نفسه: ص 131.

- http:// www.awu-dam.org.

[28]- الإسلام والغرب: صراع في زمن العولمة، ص 149.

[29]- المرجع نفسه، ص 150.

[30]- الإسلام والغرب: صراع في زمن العولمة، ص214.

[31]- المركز العالمي للدراسات وأبحاث الكتاب الأخضر، نقض أطروحة صدام الحضارات، الموسم الثقافي لشهر رمضان، 2007 ص18.

[32]- المرجع نفسه: ص 19.

[33]- المرجع نفسه، ص20.

نسخة غير قابلة للطباعة